

## حديقة آدم

يحيى البطاط\*

تعفن الوقت في ماعونك...  
 اتركي الدودَ للطين،  
 اتركي الأخطاءَ لجمجمة الماضي،  
 وتقدمي إلى النهر،  
 ارفعي ثوبك المزتر بالورد قليلاً،  
 ستلوح التماعةُ فخذيكِ تحت شمسِ الألم،  
 وتسوق البراعم إلى ضرعيك شهواتها الخضرة.  
 بين دهشة المرايا، وحسرة العطش،  
 هناك ينكشف وجهك في الأعلى.  
 تقدمي إلى الماء  
 أيُّتها اللاهيةُ بذكري الأخطاء،  
 يا قمر السكارى المدجج بالقهقهات،  
 يا أم الخوفِ والسعالِ والطواعين،  
 يا وريثةَ أمجادِ القصب...  
 يا خثرة اللبن،  
 وخميرة الخبز،  
 وشهقة التنور..  
 تقدمي إلى الماء،  
 أريني وجهك الذي تبدده الأفلاك،  
 ويزفره الرمل في أنين القوافل،  
 ووحشة الراحلين.

\* شاعر من العراق .

تقدمي إلى الماء،  
 أريني وجهك المنحوت في وهمي،  
 أريني يديك المهرولتين على قفا الأيام،  
 لياليك تنسج أحلام الموتى،  
 وموتاك يجرون نعوشهم الحجرية،  
 ويمضون وراءك أينما رحلت،  
 منذ أن أيقظك الله من سبات الدم، وقذف بك إلى وحشة الوجود.  
 أريد أن أراك.



لم تهجرين عشاقك آخر النوم،  
 وترمين بهم إلى ظلمة النيات؟  
 لماذا تدسين في فم الليل أسماءهم،  
 وتدلّقين خمورهم،  
 وتسيينهم يئنون في دفاتر الذكرى؟



أرى قمراً من فضة البرق يشرق من نهديك...  
 ألم تكوني نطفة في أحابيل الآلهة الجوّابيين على حافات النور ذات هباء، حتى قذفوك من  
 ظلمة النسيان إلى صحوة الفكرة؟  
 ألم يسمك إنليل الذي لم تسمّ المدن من قبله ولا من بعده...  
 ولم يُصَفَّ حجرٌ على حجرٍ إلا برفّة من بنانه؟  
 ألم يباركك أنو وشمش وعشتار وأورورو، والبقرة الجلييلة،  
 الذين من دونهم لن يفيض الغمر المبارك فوق كتفيك الأبيضين،  
 ومن دونهم لن تحلق الطيور المهاجرة فوق بطاحك العارية،  
 ولن تفتح الغيوم الحبلى ثغورها على ثغرك،  
 ولن تزهّر السهوب بين فخذيك،  
 ولن تلدّ البقرات عجلائها في زرائبك،  
 ولن ترعى الأسود والنمور والخنازير والكلاب جراءها،  
 ومن دونهم...  
 هذه الجموع العاجة من الرجال والنساء والأطفال لن تحجّ إليك؟



من الأعماق ينبثق النبع البارد .



ألم يهبط في أزقتك ثور السماء،  
 ويعيثُ فساداً في أسواقك، وحراراتك المنسوجة من غبار الذكريات؟  
 الثور ذو القرنين،  
 الثور المقدس،  
 ألم يحطم عربات السادة، وهوادج الشمس المبللة بالأناشيد؟  
 ألم يبعثر برفساته المجنونة صمتك،  
 ويلقي بأقفاص التمر والدجاج والبيض إلى المزابل،  
 ويرعب بخواره السيدات الباسقات،  
 فالتمعت تحت نور القمر نهودهن المهتزة من فرط الخوف؟  
 لقد خبط بضربة من ذيله الإلهي مائتين من أبنائك المترفين  
 ولوث بخرائه المبجل وجوه مائة من أبطالك الأتقياء،  
 فنذرت له سهمك الحارق  
 فتاك القوي  
 الحكيم العارف بكل شيء  
 الذي أبصر الأسرار وكشف الخبايا المكتومة  
 ابن البقرة الجليلة،  
 الذي عبر البحر إلى حيث مطلع الشمس  
 وجاب جهات العالم الأربع،  
 كان طوله أحد عشر ذراعاً،  
 وعرض صدره تسعة أشبار .  
 فتاك الذي تستيقظ على ضربات طبوله عاهراتك المقدسات،  
 طعن ثور السماء بين قرنيه اللذين يشبهان بلطات الآلهة،  
 وأراق دمه في أزقتك المشجرة الجميلة،  
 ثم صلى في معبدك  
 وضاجع حورية عاهرة،  
 شخر ونام،  
 وأنت أيضاً  
 نمت على هدي شخيره قريرة العين .



ألم يسمك البدو حين ارتفعت رياتهم السود على أسوارك العالية؟  
 وسموا أبوابك السبعة بسبعة أسماء،  
 باب البصرة وباب الكوفة وباب الوجد وباب البحر وباب الريح  
 وباب الشمس وباب الله .  
 ألم يصرخوا حين أيقظتهم فكرتك من رنين الرمل:  
 "ها هنا سرّة الدنيا"،  
 فاستطابوا لبنك وزيتك ودبسك  
 وشربوا من نبيذك الأسود جراراً كثيرة  
 سكروا وعريدوا،  
 ثم أشاروا بعصبيهم الغليظة إلى بطنك العارية  
 راسمين دائرة داخل دائرة  
 داخل أخرى، داخل أخرى،  
 يكركرون ويهزجون:  
 "ها هنا سرّة الدنيا"،  
 حتى استويت نقطة في قلب جمرة،  
 وجمرة في قلب فكرة  
 وفكرة في قلب نطفة  
 ونطفة في صلب آدم  
 فشطرك الماء إلى كوكبين  
 واحد يغفو على طين النهر،  
 وواحد يتدحرج في أفق من رمل ورمد؟



ها أنت هائمة تولولين في حقول اللذة والخبز واللبن:  
 كم أراني أحلم مثل جمرة  
 ظهري مقوَّس،  
 يسبقني رمادي إليّ  
 وتضيء في قلبي شجرة...!



إلى تلك الشجرة  
انطلقت عشائر البدو والحضر من جهات الأرض كلها  
تحلم بحلم واحد طيلة سبعة أيام وسبع ليالٍ..  
كان الحلم أنت...  
كنت تتخفين في إهاب امرأة حافية  
تهيم على وجهها بين الليل والنهار،  
وهم يتبعونك مهرولين من جهات الأرض دونما أمل،  
وحين ضاع أثرك،  
أرهقهم الجنون  
وألفهم العطش  
التقوا جميعاً في مكان واحد،  
صار كل منهم يرسم حلمه على الرمل،  
دوائر دوائر دوائر،  
يرسم ويهذي باسمك أنت.  
حاصرتهم ذكراك،  
فتعرت نجمة بين يديك،  
وتفجرت ينابيع مقام الصبا تحت سرتك  
هيئاً الرعاة والجنود والفجر  
والشحاذون والوراقون والقوادون والنساخون  
والحوذيون والعيارون، والصوفيون،  
والمعتزلة، والكلاميون، والهلاميون، والسقاءون،  
والبرص والعميان، والصبية والغلمان،  
موكباً للفراق،  
وهم يهدون باسمك أنت.  
قيل أنهم راحوا يطعمون نيرانهم الهائجة حفنة من كلام مر،  
ويدسون تحت وسائد نسائهم وصايا الحرب،  
ويعلقون بغبطة،  
سيوفاً من حجر الشذر على مهود خاوية.  
تكرر الحلم،  
ينسل تارة بين مضاجعهم ليشكل أنسالهم،  
ويظهر تارة أخرى  
على هيئة شارات سماوية،  
وأوبئة، وطواعين،  
وسيول، وجراد، وقحط، ومطر، وبرد،

وشجر يمشي وشجر يبكي...  
 وصهيل يصيب نساءهم ساعة المخاض،  
 وعواء يستبد بصبيانهم حين تكتمل فحولتهم،  
 وصواعق من نار ودخان،  
 تبصقها وحوشٌ حديدية تطير فوق الغيم،  
 وتنفث بخاراً أزرق برائحة الجوع يمزق أفئدتهم...  
 كان الحلم يزهر مثل جرح قديم  
 يخبئونه تحت أسمالهم،  
 وهم ينطلقون جيئةً وذهاباً،  
 يصعدون تارة إلى الجبل الرابض خلف غابات الأرز والكستناء  
 يقودهم شيخ ضال،  
 يصيح بهم:  
 هنا سرّة الدنيا  
 هنا سرّة الدنيا!  
 وتارة ينحدرون إلى ماء الأهوار الأسود،  
 تتبعهم سلالات عجيبة  
 من البط والجاموس والأسماك والبغال  
 والكلاب، والنمور والخنزير،  
 وفي أثرهم تمشي قوافل  
 وتولول نايات  
 يجرحون الصمت بأنينهم،  
 تعلموا كيف يحرقون الزمن في مباحرهم،  
 وكيف يتزينون بذهب الكلام.  
 وتعلموا كيف يطفئون رغباتهم في الجمر.  
 ويصغون إلى شخيرها الأحمر.  
 يستيقظون على يقين،  
 ويبيتون على يقين.  
 حتى أبصروا آلهة صفاراً تثبت بين حقول القصب،  
 آلهة بعيون كبيرة وأذنان معقوفة تتقاذف في الوحول وتلتهم الشعير،  
 تنطق بحروف كالمسامير  
 زرعوا الحروف على وسائدهم،  
 ونقشوها على ألواح من طين أخضر انتزعوه من قلوبهم،  
 أرضعوا آلهتهم لبن جواميسهم  
 وأطعموها كلمات سوداً،

ثم أطلقوها في الأعالي.  
لترعى في حقول اللذة،  
وتمضغ هذيانات الجحيم.  
وذاث يوم أضرموا ناراً عظيمة،  
وأشاروا بسباباتهم نحو السماء،  
فانكشفت وجهك في الأعالي...  
رقصوا وطلبوا وغنوا  
ومد شيخهم يده ليدغدغ خاصرتك العارية،  
كنت تقهقهين،  
وترسمين ظلالهم الخفيفة على الرمل  
هاجوا وماجوا،  
وكننت كما أنت  
تلاحقين أحلامهم،  
وتطاردينهم واحداً واحداً بغنائك المر:  
أنا في ليل غريب مدلهم،  
زادني الشوق هموماً فوق همّي  
كم أراني أتقي غمي بدمي  
في الصحارى والرياح العربية!؟  
لكنك آخر الليل  
ترمقين الرجل منهم بنظرة تحيله إلى رماد...  
تسفهين آياتهم،  
وتبولين على راياتهم  
وتزهقين كلماتهم بحروف يابسة  
فيفسد نبذهم،  
وتتكسر مواويلهم،  
وتتفق أبقارهم،  
وتتبيس نساؤهم،  
ويعوي في البرية صبيانهم من فرط الجوع.  
كشفوا حيلتك،  
واختفوا فرادى فرادى تشتتهم الجهات،  
يحف بهم القصب  
وترفرق على رؤوسهم،  
أسراب الغرة والغاق، والحدّاف  
والحمام البري والحساسين الملونة...

يصرخون:  
 تعفن الوقت في ماعونك،  
 اتركي الدودَ للطين،  
 اتركي الأخطاءَ لجمجمةِ الماضي،  
 وتعالى إلى الماء،  
 ارفعي ثوبكِ المزترَّ بالوردِ،  
 ستلوحُ التماعَةُ فخذيكِ تحتِ شمسِ الألمِ،  
 وتسوقُ البراعمُ إلى ضرعيكِ شهواتها الخضِر.  
 وبينما كنتِ تضحكين،  
 كان ريشهم يتساقطُ  
 وغناؤهم يتبدد،  
 وملامحهم تغيب.  
 رددتِ أجماتِ القصبِ،  
 ودواماتِ الماءِ الأسودِ  
 واللقالِقِ المهاجرةِ،  
 ردد موتاكِ المستيقظون مثلِ نمورِ جائعةٍ تحتِ ظلالِ القبابِ الزرقِ  
 رددِ السحرةِ والشعراءِ:  
 نرى برقاً يشدو على أسواركِ المدورةِ،  
 فهل تنسىِ الجذورِ لذةِ التوغلِ في الطينِ؟  
 وهل تتلمسُ الأصابعِ حرائقِ الألمِ لحظةِ القطافِ؟...



بينك وبين الرملِ حُجْلٌ وقطا،  
 بينك وبين الحلمِ جمرٌ وغضا،  
 بينك وبين الماءِ  
 زمنٌ يتعفن من فرطِ ذكراه،  
 بينك وبين الله  
 مزاميرٌ تعزف لحناً نرقع بهِ شحوبَ أيامنا:  
 متى تقولين للجمالِ كن وطناً، وتكونين؟  
 متى تقولين للأرضِ كوني امرأةً، وتكونين؟  
 لا يدي طالت ولا قوسي رمى  
 وسمائي حجرٌ تحتِ السما  
 كلما شأهت بعيني نظرة



أطفأ الرمل نهاري بالعمى  
لم يا صحراء ضاقت خطوتي،  
ويقيني صار أحلام الدمى؟



ذي أسواقك تعج بباعة الذكريات والأوسمة والنياشين،  
وساحاتك مشتعلة بأنين الجمال..  
بينما أبوابك موصدة على وطن من رملٍ ورمد،  
ومفاتيحك معلقة في ذاكرة تتعفن.  
هكذا يترنح الأسل بين الصبا والصبأ  
بين الأسى والأساور،  
وهذا الرماد أنا، وتلك يدي  
فزاعة تغفو مع الضجر  
في كل جارحة أفيق على  
عطش، وذكرى الماء في أثري  
فألوذ في شجر الفمّه  
بين الظنون،  
وأظنه شجري  
أسقيه من شجن الغياب روى  
وأراود الأغصان بالثمر  
وأصيح يا متطاولاً بدمي  
هذا الرماد أنا  
والنار في وتري.